مبهوتاً أمام هذا الشره الحيواني والعقلية البهيمية ولا يجد وصفاً ينطبق تمام الانطباق على المغاربة الا أنهم . . . أكولون ! !

فانظر أيها الاديب المراكشي الى ما أوصلنا اليه تقاعس شعرائنا عن تتبع النهضة المباركة التي عمت جميع الاقطار العربية والتي يريد بعض الجامدين أن يحرموا مغربنا العزيز من اقتطاف ثمارها .

يا ابن عباد ان لذعاتك سيكون لها صدى في كل أنحاء المغرب وستكون ـ باذن الله ـ كالحفنة المقوية تجري الدم ثائراً في عروق ادبائنا فينفضون عنهم غبار الكسل ويغادرون حياة الخمول ، فياتون بكل جديد ومبتكر ويبرهنون على ان المغربي لا زال ـ كما اشتهر عنه في التاريخ ـ ذكياً عبقرياً ، فلتسر في طريقك أيها الأخ ، ولا يحجزك عن الاسترسال هذه الأشواك التي تجدها امامك ، دعها بقدمك وتوجه الى غايتك وأتحفنا بمقالك الذي ننتظره بفارغ الصبر .

محمد ملين

— للحقيقة والتاريخ —

جاء في مجلة المغرب عدد رمضان تحت عنوان « نشأة الادب العربي في المغرب » نسبة هذين البيتين : أليس أبونا هاشم الخ الى المولى ادريس رضي الله عنه ، فرأينا أن نصحح هذا الغلط الذي سبق الكاتب اليه جمهرة من مؤرخي المغرب فنسبها اليه صراحة أبو العباس ابن القاضي في جذوة الاقتباس وزاد بيتاً ثالثاً وهو :

ولكننا أهل الحقائق والنهى
اذا طار أرواح الكماة من الرعب

وكذا نسبها له العلامة ابن زكري في شرح همزيته وهو الذي يفهم من سياق الانيس المطرب والاستقصاء وغيرهما .

والصواب أن الابيات المذكورة هي لابي طالب عمّ النبي صلى الله عليه وسلم في قصيدة رد بها على كفار قريش في قضية الصحيفة كما أوردها الامام الكلاعي في الاكتفاء أثناء كلامه على الصحيفة منسوبة له .

ومنشأ هذا الغلط فيما نرى هو ما فهموا من حكاية داود بن القاسم بن عبد الله بن جعفر الأوْرَبي قال : شهدت مع ادريس بن ادريس بعض غزواته للخوارج الصفرية . . . فأعجبني منه ثباته ورباطة جأشه . . . فجعلت أديم النظر اليه ثم سألته في ذلك . . . فأنشأ يقول : أليس أبونا هاشم الخ ففهموا منه أن الشعر له وهو انما أنشده متمثلاً بقول ابي طالب .

ومما ثبت من الشعر للمولى ادريس رضي الله عنه يخاطب بهلولا ابن عبد الواحد من خاصة رؤساء الدولة وقد مال عنه الى ابراهيم ابن الاغلب حاكم تونس :

أبهلول قد شممت نفسك خطة
تبدلت منها ضلة برشاد
أضلك ابراهيم من بعد داره
فأصبحت منقادا بغير قياد
كانك لم تسمع بمكر ابن أغلب
غدا ءاخذاً بالسيف كل بلاد
ومن دون مامنتك نفسك خاليا
ومناك ابراهيم شوك قتاد

وقد نسبت له أبيات اخرى لم نتثبت من صحتها بعد .

الباحث

نشأة الادب العربي بالمغرب

عهد الدولتين المغراوية واليفرنية

(٢)

ابنا في مقال سابق أن الدولة الادريسية لم تكن تعرف الادب ولم تكن خلافتها بمرتكزة على قوة أدبية علمية وزد على ذلك أن دولتها كانت من نفسها تشعر بعاطفة شديدة قلبية للبربر وتجعل نفسها متمدحة بخصالهم لانهم نصروها وآووها بعد ما طردها الشرق وكانت تحب المغرب حباً كثيراً لانه قبلها بعد ما نفر منها الشرق وصاحب شجرة الاشراف ياتي بحديث عن فاطمة ويزعم أنه صحيح مضمنه : أن أولاد فاطمة وأحفادها سيقتلون ويشردون وسياويهم قبائل في المغرب يقال لهم البربر فطوبى لمن والاهم وأعزهم وويل لمن . . .

ويلزم من هذا أن ترتكز في عقلية ابناءها العاطفة البربرية الجافة (عاطفة الاستيلاء) ويصبحوا كلهم يعتقدون أنهم هم الملوك الذين ارسلوا لحكم المغرب فرغم وجود هذا الحديث الذي سقنا اليك مضمنه ورغم كون البربر أحبوا أبناء الرسول فعلوا بهم ما فعلوا

وغلبت عليهم عاطفة محبة الملك والولاية على عاطفة محبة الاشراف أبناء الرسول ورغم كثير من ذلك لم تصف للبعض منهم الدنيا ولم يصدقهم البربر فيما وعدوهم به من النصرة فظلوا يقتلون ويشردون وفي هذا العهد أظلم جو المغرب أكثر مما كان وثارت البربر على الادريسيين من كل جهة في دولتيهم الريفية والسبتية وفي غيرهما يفتكون بهم حتى نفر جل الادريسيين من نسبهم الشريف واختلطوا مع عامة الناس خوفاً على أنفسهم من القتل والتشريد.

وحقاً فقد أصبح رجال هذه الاسرة برابرة واضمحلت من نفوسهم العاطفة العربية ولم يبق لها أي تاثير عليهم وطمع كل منهم في الملك فلزم على هذا ان ساد الجهل باللغة العربية وما فيها من معارف وانصرف الفكر المغربي البربري عن العرب والادريسيين ونشأ عن هذا أن فسد الجو السياسي فقضى على الفكرة العربية الضعيفة وتكاثر طلاب الولاية من البربر فقبع الادريسيون في اماكنهم وكان السبب المباشر في قضاء دولة بني أبي العافية عليهم هو حب الملك من الجانبين وكان الملك لمن غلب.

وقد وعدنا قراءنا الكرام في العدد الماضي بأن نبحث بين ثنايا هذين الدولتين ونتقصى في البحث والتنقيب عن نشأة الادب العربي في مغربنا وزمن تكونه وعن أي أثر عربي يوجد نظماً أو نثراً صدر من أديب أو خطيب أو عالم وعن هاتين الدولتين وعهدهما وهل كانتا مثل الدولة الادريسية في الانحطاط الفكري أو ارتقتا عنها شيئاً وهل تكون في المغرب اسلوب عربي في هذا العهد أو لم يتكون وهل أثرت الدولة الاندلسية من الناحية الفكرية على شعوب البربر لذلك العهد أم لا وهل عرف عند المؤرخين أدب عربي على عهد هذين الدولتين أم لا ؟

وها نحن أولاء نبحث ونتبين ونحتفظ في المصادر التي بين أيدينا علنا نظفر بشيء يطلعنا على حقيقة نشأة الادب العربي في المغرب وعلى ما من شأنه ان يوضح لنا ذلك العصر الذي حاول جميع مؤرخي المغرب ان يظهروه كما هو فلم يوفقوا ولم تسعدهم المعلومات عنه الا بشيء يسير لا يطفيء غلة الباحث الخبير من ابناء الجيل الحاضر فنقول :

بعد ما انقضت الدولة المكناسية واضمحل أثرها من المغرب كانت قبيلة زناتة هي القبيلة التي تفضل سائر قبائل البربر كثرة وقوة وكانت جل مدن المغرب عامرة بقبائل زناتة وكانت ذات شخصية ممتازة في المغرب ولها المكان الذي لا يجهل في الولاية والحكم، قال صاحب الاستقصاء نقلاً عن العلامة ابن خلدون : اعلم أن جيل زناتة في المغرب كما قال الرئيس المذكور جيل قديم معروف العهد والاثر وهم لهذا العهد آخذون من شعار العرب في سكنى الخيام واتخاذ الابل وركوب الخيل والتقلب في الارض وايلاف الرحلتين وتخطف الناس من العمران والاباية عن الانقياد الى النصفة وشعارهم من بين البربر اللغة التي يتراطنون بها وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر ومواطنهم في سائر مواطن البربر بأفريقية والمغرب فمنهم بلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الاقصى حتى أن عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم ومنهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحي أفريقية وبجبل اوراس بقايا منهم سكنوا مع العرب الهلاليين لهذا العهد والاكثر منهم بالمغرب الاوسط حتى أنه ينسب اليهم فيقال وطن زناتة ومنهم بالمغرب الاقصى امم اخرى ه وقد قسم ابن خلدون قبائل زناتة الى طبقتين طبقة كانت منها الدولة المغراوية ملوك فاس وبنو يفرن ملوك سلا وطبقة كان منها بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الاوسط وبنو مرين ملوك فاس والمغرب الاقصى.

ولم يكن للدولة المغراوية حكم استقلالي بفاس والمغرب وانما كانوا ولاة تحت نظر الامويين بالاندلس وتابعين لهم في الحكومة والسياسة، قال صاحب الاستقصاء : ثم أن مغراوة وبني يفرن قبيلتان من أعيان قبائل زناتة وكان مغراو ويفرن أخوين وهما ابنا يصليتن ابن مُسري بن زاكيا بن وَرْسيك بن الدّيديت بن زَانا وهو أبو زناتة وتقدم له حيث كان يتكلم على الفتوح في عهد الصحابة رضي الله عنهم أن قال لما قدم جيش الخليفة الاعظم عثمان بن عفان رضي الله عنه الى المغرب أسروا عظيماً من عظماء البربر يقال له صولات بن وزمار وبعثوا به اليه فأسلم على يده وولاه على قومه فنشأت في نفوس البربر لهذا البيت البربري هذه المزية العظيمة والمأثرة الكريمة وعرفوا له قدره وخصوصاً في قبيلة مغراوة وسائر زناتة.

أصبحت القبيلة الزناتية وهي ما هي كثرة وقوة تشعر أنها هي القبيلة التي تخلص المغرب من ورطته وويلات فتنه وتزيل عنه تلك الفوضى التي استولت عليه عقب أن انقضت حياة الحسن

بن كنون آخر ملوك الادارسة ذلك الرجل الذي كان مثالاً نادراً يحب الحكم والولاية ومستعداً لقبول كل ناعب وراغب في توليته من غير أن يستوثق به فكان بسبب شرهه هذا دولة بين ايدي الدولتين الشيعية والمروانية الى أن ختمت حياته مقتولاً على يد المنصور بن أبي عامر بارسال من حز رأسه وأتاه به .

أرادت قبيلة مغراوة ان تستقل بولاية المغرب وتحكمه بنفسها وعزمت على ذلك عزماً بربرياً أكيداً ولكن الناصر الاموي كانت شوكته ثابتة هنا في المغرب منذ عهد ابي العيش اخ الحسن بن كنون فلم تجد معه قوة لان جيوشه كانت تغير على مدن المغرب وكان واليه لايبرح منه مع حامية منظمة وكان الانقلاب السياسي قاضياً عليها بذلك لانها كانت في هذا الوقت طعمة لكل آكل وحجرة لكل واطئ فقد كانت أيضاً الدولة الفاطمية فاغرة فاهها تريد أن تلتقم المغرب ـ بعد ما ملكت مصر ـ وكل من بان ضعفه وتلاشت عزماته خصوصاً لما رأت طاعة الناصر الاموي منتشرة في المغرب الاقصى ، ورأت الاولى ان تكون قبائل البربر تابعة لها لانها أقرب الى المغرب من أي دولة اخرى ولان جيوشها يعرفون كيف يحاربون في صحاري المغرب وقفاره ففي سنة ٣٤٧ أرسل المعز الفاطمي واسطة عقد الدولة الفاطمية قائده المخلص جوهراً الصقلي للاغارة على المغرب ونشر دعوته هناك فقدم جوهر هذا ووجد جميع الزناتيين متمسكين بدعوة الخليفة الناصر الاموي فقاتلهم قتالا شديداً وأرغمهم على البيعة للمعز الفاطمي فبايعوا وكان جوهر هذا فاتحاً عظيما وحكيما فانه لما رأى نفسه بين جيوش كثيرة من يفرنيين ومغراويين واندلسيين لم يجد حيلة في القضاء عليهم وعظم عليه الامر مع هؤلاء البرابرة وهم كما تعلم مثل العرب الخلص في الحرب والشجاعة يحاربون في كل مكان في الوعر وفي السهل وفي الجبال والشعاب فلما رآهم على هذه الحالة اغواهم بالمال على قتل الامير اليفرني الذي كانت له الزعامة اذ ذاك وكان العامل للناصر على المغرب فقتلوه وأتوه برأسه فبعث به الى اميره المعز الفاطمي فطيف به في القيروان ثم تقدم الى حصار فاس وكان نزوله بها سنة ٣٤٩ واقتحمها وهدم اسوارها وقتل حماتها وقتل بها خلقاً كثيراً وقبض على أحمد بن أبي بكر الزناتي الذي كان واليا للناصر عليها وانصرف راجعاً عنها بعد ما قطع دعوة المروانيين وردها الى العبيديين فخطب لهم على جميع منابر المغرب وبعد ما رحل عن المغرب قامت قيامة اهله وقطعوا دعوة المعز الفاطمي وتمسكوا بدعوة الناصر الاندلسي فوصل الخبر الى المعز فأرسل قائده الثاني بلكين بن زيري ابن مناد الصنهاجي فقتل زناتة واستأصلهم وملك المغرب بأسره وقطع دعوة الامويين بالمغرب وكان من جملة الذين اعانوه على قطعها الحسن بن كنون الادريسي الطائش فلما انصرف بلكين الى افريقية ارسل الحكم الاموي الذي خلف الناصر على عرش الاندلس قائده ومولاه غالبا الاموي الى قتال من خرج عن بيعته من أهل المغرب ، قال صاحب الاستقصا : وغالب هذا مولى صاحب الاندلس بعيد الصيت معروف بالشهامة والنجدة والدهاء بعثه الحكم واعطاه اموالا جليلة وجيوشاً كثيرة وعُدداً وافرة وأمره بقتال آل ادريس واستنزالهم من حصونهم ومعاقلهم وقال له عند وداعه سر مسير من لا أذن له في الرجوع الا حياً منصورا أو ميتاً معذورا ولا تشح بالمال وابسط يدك يتبعك به الناس فاغار على برابرة المغرب وبقية الادريسيين وأهلكهم هلاكاً مفرطاً ورد الدعوة الى الامويين ولم يزل المغرب بيد ملوك الاندلس الى أن غلب عليه زيري بن عطية المغراوي أول ملوك مغراوة وبقي والياً عليه من قبلهم الى آخر مما هو مذكور في كتب تاريخ المغرب وليس من موضوعنا لاننا نبحث عن النشأة الادبية والحالة العلمية وأما الحالة السياسية فلا نذكر منها الا ما كان متعلقاً بموضوعنا .

قال العلامة ابن خلدون : وفي سنة ٣٤٧ تقدم جوهر الصقلي الى سجلماسة وكان قد قام بها محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار المعروف بالشاكر لله ، وكان قد ادعى الخلافة وتسمى بامير المؤمنين وضرب السكة باسمه وكتب عليها تقدست عزة الله وكانت سكته تعرف بالشاكرية وكانت في غاية الطيب وكان سنياً مالكي المذهب قد خالف سلفه في مذهب الصفرية .

واذا صح كلام ابن خلدون هذا في اهل سجلماسة فانه كان هناك بعض العلم وكان اهلها بحكم القائم بها تشعر بعاطفة دينية فان الرجل الذي يتسمى بامير المؤمنين ويتمذهب بمذهب الامام مالك يكون ولا بد عنده في دائرته وحاشيته من اهل العلم والمعرفة من يشدونه ويرشدونه الى حقيقة مذهب اهل السنة سيما وأن ابن خلدون يقول ان هذا الرجل قد خالف سلفه في مذهب الصفرية واعتنق مذهب اهل السنة الذي علم انه الحق وانه الطريق التي تنجي صاحبها من شرور الدنيا وويلات الاخرة وعلى

كل حال سواء كان في سجلماسة عند امير المومنين المدراوي بعض العلماء أو لم يكونوا فان اثرهم قد انمحى بموتهم ولم يظهر لهم أي تاثير حتى في البلاد نفسها فليس من الانصاف ان ندعي كما ادعى غيرنا بان هذا العصر في سجلماسة كانت فيه النشأة العلمية وكان هو الحد الفاصل بين حياة الجهل باللغة العربية والمعرفة بها ولعل الحقيقة قد أفصح عنها صاحب صبح الاعشى حيث قال : ان مدرار ابن عبد الله جد الشاكر كان من أهل الحديث ويقال انه لقي عكرمة مولى ابن عباس بافريقية وسمع منه هـ فحفظ هذا المدراري طريقة جده وتبع مذهب اهل السنة لذلك اذ ان الدولة الادريسية التي صاحبها عربي صميم ومن بيت العلم والشرف والكرامة والنزاهة لم يكن في استطاعته ان يؤلف شعوب المغرب على رابطة صحيحة من العلم ولم يكن في امكانه ان يؤسس حتى المكاتب القرآنية للصبيان فاحرى أن يدور بخلد دولة بربرية كآل مدرار المغراوية واليفرنية هذه العاطفة الشريفة — عاطفة العلم والدعوة اليه — وهي امة بربرية متمسكة بنزعتها ولغتها مخالفة على مبدئها وعوائدها البربرية...

كان من ابناء صولات بن وزمار الذي اسلم على يد عثمان بن عفان رجل يقال له زير بن عطية المغراوي وكان رجلاً ـ بطبيعة

قبيلته زناتة ـ يحب ان يكون أميراً ولا تسمح له نفسه ان يكون وزيراً كما سماه الخليفة الداهية المنصور بن أبي عامر حين استدعاه لتجديد العهد له على المغرب ونواحيه فانه حين رجع الى وطنه المغرب هزته النخوة البربرية وانتفخت فيه النعرة الزناتية فوضع يده على رأسه وقال : الآن علمت انك لي واستقبح اسم الوزارة وقد خاطبه به بعض خدامه فنهاه عن ذلك وقال وزير من يالكع ؟ ؟ لا والله الا امير ابن امير وا عجباً لابن أبي عامر ومخرقته لان تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ولو كان بالاندلس رجل ما تركه على حاله وان له منا ليوماً وكانت النتيجة ان عزم على خلافه وقطع اسمه من الخطبة واقتصر على ذكر اسم هشام المؤيد الخليفة المحجور .

وهذه فخفخة عجيبة وعربية صريحة اذاً كان زير بن عطية هذا رجلا له المام بالعربية وله معرفة بالامثال والنوادر فمن ابن اكتسب هذا وهو بربري زناتي وكيف دخل الى ذلك الذهن البربري القح كلة لكع الغريبة والمثل العربي الصريح بلفظه ومعناه فان زير لم يكن ليقول هذا المثل وهو لا يدريه ولا يدري معناه اضف الى ذلك انه أتى به في محله ما ذاك الا أن الرجل كانت له مخالطة برجال الاندلس وعلمائها ومجالسة مع قاضيه الفاضل الذي كان مقيما بجانبه لا يبرح عنه طرفة عين ، وقد ولى قضاء المدينتين لما ارسل يستدعيه المنصور أبا محمد قاسم بن عامر الازدي .

قال ابن أبي زرع عند كلامه على الدولة المغراوية أول ملك منهم بالمغرب زير بن عطية بن عبد الله بن تاذلت بن محمد بن خزر الزناتي المغراوي الخزرلي ملك على زناتة في سنة ٣٦٨ فقام في المغرب بدعوة هشام المؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر وذلك بعد انقطاع ايام الادارسة منه وبني أبي العافية المكناسيين فغلب زير على جميع المغرب وملك مدينة فاس دخلها قواده عُسقلاجه وأبو بَياش ثم أتى هو بعدهما فدخلها واستوطنها وصيرها دار ملكه الى أن قال : وأقام بها وأسكن قبيله في انحائها وبالقرب منها في قياطينهم الى سنة ٣٨٢ فاستدعاه المنصور فولى قضاء المدينتين أبا محمد قاسم بن عامر الازدي هـ الذي قالوا انه كان من العلماء الراحلين من بلدة القيروان الى المغرب وقالوا انه كان رجلاً فقيهاً ذا خبرة باصول الفقه وفروعه ناهيك أنه تخرج من تلك الكلية الزاهرة النافعية التي قصد بها مؤسسها وجه الله فكانت كما قصد .

«يتبع» محمد المهدي الفاسي